7. التصوف:

أولًا: جوهر التصوف

التصوف طريقٌ روحيّ يقوم على تنزيه النفس عن حبّ الذات والسعي إلى الحقيقة بالمحبة والإخلاص. وهو ليس معرفة عقلية برهانية بقدر ما هو تجربة ذوقية تقوم على الوحي والتزكية، وتهدف إلى بلوغ الكمال الإنساني عبر التقوى والمحبة. فالمتصوف هو "محبّ للحق" يسعى إلى الاتحاد القلبي بالله وتزكية النفس.

أ- التصوف: المصطلح والمفهوم

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في أصل كلمة "التصوف:"

- رأى بعض القدماء، مثل أبو الريحان البيروني، أنها مشتقة من الكلمة اليونانية "سوفيا" (الحكمة)، وأن الصوفي هو "الحكيم الإلهي."
- وذهب مستشرقون مثل فون هامر إلى الرأي نفسه.
- بينما رأى جمهور الباحثين المحدثين أن الكلمة مشتقة من "الصوف"، أي لباس الزهاد، ومنهم مصطفى عبد الرازق وزكي مبارك.

ويخلص الدرس إلى أن الاشتقاق اللغوي لا يحدد بالضرورة جوهر التصوف، لأن المعاني تتطور وتتجاوز أصلها اللغوي، فالتصوف ليس مجرد مظهر خارجي (لباس الصوف)، بل تجربة روحية عميقة.

ب- إله المتصوفة (الرؤية الميتافيزيقية)

تبلورت النظرية الصوفية للألوهية عبر مراحل، خاصة مع:

- الجنيد
- أبو حامد الغزالي
- محيي الدين ابن عربي
- عبد الكريم الجيلي

يرى الفكر الصوفي أن الألوهية تتجلى عبر مراتب:

1. **مرتبة الذات (الأحدية)** :حيث تكون الألوهية في كمونها وغناها المطلق، بلا أسماء أو صفات ظاهرة.
2. **مرتبة الألوهية** :بداية التجلّي وظهور الاسم "الله"، حيث تبدأ الثنائية بين الحق والخلق.
3. **مرتبة الرحمانية** :ظهور القدرة الخالقة.
4. **مرتبة الربوبية** :التجلي المرتبط بعالم الخلق، حيث تظهر الأسماء الفاعلة (الملك، القهار، المجيب...).

ويشرح الجيلي هذه العلاقة بمثال الجليد والماء: فالخلق كالجليد من حيث الشكل، لكنه ماء من حيث الجوهر؛ أي أن الوجود مظهر للحقيقة الإلهية دون انفصال عنها.

كما يؤكد الفكر الصوفي أن ذات الله لا تُدرك بالعقل، بل بالذوق الروحي، وأن وحدة الحق والخلق لا تعني الانفصال بل تعدد التجليات.

ج- مراتب الصوفية

وضع المتصوفة نظامًا هرميًا يحدد طبقات الأولياء، كما ذكر لسان الدين بن الخطيب وعلي الهجويري.

أهم المراتب:

- **القطب (الغوث)** :أعلى مرتبة، لا يكون إلا واحدًا في كل زمان.
- **الإمامان** :معاونان للقطب (يمين ويسار).
- **الأوتاد الأربعة**
- **الأبدال السبعة**
- **النقباء**
- **الأولياء بأعداد مختلفة (10، 12، 40، 300، 360)**

وهؤلاء يشكلون نظامًا روحانيًا يحفظ توازن العالم، وعددهم ثابت لا يزيد ولا ينقص. أما غيرهم من الأولياء فيتغير عددهم بحسب تجليات الحق.

ويُعدّ "الأفراد الكُمَّل" مرتبة خاصة تأخذ عن الله مباشرة دون وساطة القطب.

الخلاصة العامة

المحاضرة تبرز أن التصوف:

- تجربة روحية تقوم على المحبة والتزكية.
- مفهوم لغوي مختلف في اشتقاقه، لكن جوهره يتجاوز الاشتقاق.
- رؤية ميتافيزيقية ترى الألوهية في تجليات متعددة دون انفصال بين الحق والخلق.
- نظامًا هرميًا روحيًا ينظم طبقات الأولياء.

بالتالي، التصوف ليس مجرد زهد أو مظهر، بل بناء فكري وروحي متكامل يسعى إلى معرفة الله معرفة ذوقية تتجاوز العقل المجرد.